محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

obeikandl.com

محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الأولى

هذه بحوث ودراسات أدبية جديدة ؛ حول الشعر الجاهلى ، وموقف النقاد منه ، ومذاهبهم فى نقده ، والتجديد والتقليد فيه ، والطبع والصنعة وآثارها الفنية فى نشأته ونهضته ، وموازنات أدبيـة جديدة ، تسير وفق أحدث مناهج البحث الأدبى فى النقد والموازنة .

ولا أجد ما أقوله إلا أن أقدم هـذه الدراسات للقراء والباحثين . معتمدا على حسن تقديرهم ، وكريم شعورهم ، وعدالتهم الأدبية فى الفهم والتذوق والنقد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

أستاذ بكلية اللغة العربية

obeikandl.com

آراء علماء الأدب

فى الشعر الجاهلى

— ١ —

الشعرُ الجاهليُّ ، الذى اتخذه الشعراءُ فى مختلفِ العصور ، أصلاً يحتذون حذوه ، ويتهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه فى مناحيه الفنيةِ والأدبية تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعرُ هو الذى نريد أن نتحدث عن موقف النقادِ منه ، وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمعُ مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع المتشعب الدقيق .

— ٢ —

وأولُ ما نذكره فى هذا البحث آراءُ الجاهليين أنفسهم فى الشعر الجاهليِّ ونقده ؛ وهذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن منزلة بعض الشعراء الأدبية فى الشعر ، وطائفةٌ أخرى فيها نقدٌ لبعض الشعراء

فأنت تعلم أن كلَّ قبيلة فى الجاهليـة ، كانت ترفع منزلة شاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأوّلهم فى دولة الشعر . فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسدٍ يذهبون إلى تقديم عَبيد ، وتغلب تقدّمُ مهلهلا ، وبكرٌ تُقدِّم المرقّشَ الأكبر ، وإياد ترفع من شأن أبى دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا ، وأهل الحجاز

لا يعدلون بزهير أحدا . وكان العباس ابن عبد المطلب يقول عن امرىء القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه .

كما تعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة فى نقد الشعراء : فكان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوما فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا أن أبا بصير — الأعشى — أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجن والأنس ؛ فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده وقال : يابن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدت الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار ... أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

فلما بلغت قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

قال : ما رأيت امرأة أشعر منك ؛ قالت : ولا رجلا .

وحكومة أم جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرىء القيس مشهورة ؛ ولا داعى لذكرها ، فلها حديث آخر إن شاء الله .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال : إنى لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » ان الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بنَ الطبيب والمخبلَ السعدىَّ ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر ، فى الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخنَ ، لاهو أنضج فأكل ، ولاترك نيئاً فينتفعُ به ؛ وأما أنت ياعمرو فإن شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر ؛ وأما أنت ياعبدة فإن شعرك كزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا فى موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لوأن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فإما أن تخبرونى عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فإنى أبدأ بنفسى ، أماشعرى فمثل سقاء شديد ، وغير من الأسقية أوسعُ منه ، وأما أنت يازبرقان ، فإنك مررتَ بجزور منحورة ، فأخذت من اطايبها وأخابثها .

إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقاد للشعر فى العصر الجاهلى والتى لاتخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء

— ٣ —

وجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقفٌ جليلٌ من الشعر الجاهلىِّ . أنكر بعضاً وعرف بعضا ، أنكر هذا الشعرَ الذى ينافى الأخلاقَ الكريمة ، والمثلَ العليا ، من الغزلِ الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المغرق ، والمبالغة ؛ وعرف هذا الشعرَ الذى يدعو إلى

الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية فى سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقفُ الخالدُ للإسلام ونبيه العظيم ، توجيها جليلا لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلاً للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقاً للشعر ومنهج الشعراء فى الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهرَ أثر الاسلام والقرآن فى تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه وفى البعد به عن الحوشية والغرابة ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة

كما ظهر أثرُ القرآن والحياة الجديدة فى عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وأخيلتهم .

— ٤ —

وفى عصر دولة بنى أمية ، انتشرت العصبياتُ ، وكثرت الخلافاتُ السياسية والدينية وتغيرَ نهجُ حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين فى الشعر ، واتخذوه أداةً للدفاع عن الرأى والعقيدة ، ولساناً لأذاعة محامدهم ومفاخرهم ؛ وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلى ، والشبابَ على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعتْ فى هذا العصرَ أصول النحو العربى ، فأخذ العلماء ينقدون الشعرَ الجاهلىَّ نقداً يتصلُ بالأعراب ، وكان ابنُ أبى إسحاق وعيسى بنُ عمرَ يطعنان عليهم ، وكان عيسى يقول : أساء النابغة فى قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

ويقول موضعه : ناقماً[1] » .

— ٥ —

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلى ونقاده فى القرن الثانى الهجرى .

أبو عمرو بن العلاء البصرى المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ؛ وحماد الراوية الكوفى [٧٥ — ١٥٦ هـ] ، وخلف البصرى م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبى م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتا بيتاً ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين ،

ومنهم ابن الكلبى م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصارى صاحب كتاب الجمهرة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصرى م ٢٠٩ هـ صاحب « النقائض » و « مجاز القرآن » ، والأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان لهؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلى ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين فى طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأيا

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى ؛ ويروى عنه : « لو أدرك الأخطل يوما واحداً من الجاهلية ماقدمت عليه

(١) ٤١ الموشح ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام فى « طبقات الشعراء » : أشد الناس تسليماً لهم .

وكان المأمونُ رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أميةَ

وكان الأصمعى — مع تحاملُه على المحدثين وشعرهم — معتدلاً فى عصبيته للشعر الجاهلىّ ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الردىء ، عاب امرأ القيس فى قوله فى وصف الفرس :

وأركبُ فى الروع خيفانةً كسا وجهها سعفٌ منتشرْ

والخيفانة فى الأصل هى الجرادةُ ، وتشبيه بها الفرس فى الخفة ؛ قال الأصمعىّ : شبّه شعرَ الناصيةِ بسعف النخلةِ ، والشعر إذا غطّى العين لم يكن الفرس كريما ! كما عاب غير امرىء القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم الشعر بالرّمّاح ، وهو شاعرٌ أمويٌّ مشهورٌ .

— ٦ —

وفى القرن الثالث الهجرىّ نجدُ النقاد فى موقفهم من الشعر الجاهلى طائفتين :

فطائفةٌ تُعجب بالجاهليين وشعرهم إعجابا شديدا ، ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ، ويشيد بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبى نواسٍ وأبى تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرْمة ؛ وقال فى بشار : ولله لولا أنّ أيامه تأخرتْ لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضا إسحاق الموصلى م ٢٤٠ هـ ، وكان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتدُّ ببشار ؛ ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك فى الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ، وينكرُ تغييره ويُعظم الأقدام عليه . ومثلُ ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأوربية ، فقد كان « هوراس » الشاعر الرومانىّ يرى أن شعراء اليونان هم النماذجُ التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان فى فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهبٌ أدبىٌّ يرمى إلى إكبار البلاغةِ القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم « باولو » ، حتى ألف شارل بيرو كتابه الموازنة بين القدماء والمحدثين ، يدعو فيه الى التحرر من التقليد ، ويشيدُ بالمحدثين ، ويقول إنهم فاقوا القدماء فى البلاغة .

وقد اعتذر الباقلانى عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى ؛ واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ؛ ولكنّ الجرجانىّ فى الوساطة يذكرُ أن ذلك أثر لتعصب علماءِ اللغـــة ووراتها للشعر القديم ، وإنكارهم افضل المحدثين وشعرهم[1] .

وطائفةٌ أخرى من النقاد فى القرن الثالث ، حكّموا الذوقَ الأدبىّ والطبع وحدهما فى الشعر ؛ وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهليا كان

---

(١) ٤٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

أو إسلاميا أو محدثا ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم فى الزمن ، ولم يغضّوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم . ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابنُ قتيبةَ م ٢٧٦ هـ ، والمبرِّد م ٢٨٥ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه « الشعر والشعراء[١] » : ولا نظرت إلى المتقدّم بعين الجلالةِ لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقَّه ، ووفَّرت عليه حظه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعرَ السخيفَ لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويَرْذل الشعر الرصينَ ، ولا عيبَ عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ؛ ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغةَ على زمنٍ دون زمن ، ولا خصَّ به قوماً دونَ قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كلَّ قديمٍ منهم حديثا فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدّون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحِدْثان عهد يُهتضمُ المصيب ، ولكن يعطى كلٌّ ما يستحقه[٢] .

وأنكر ابنُ المعتزِّ عصبية هؤلاء النقاد للشعر القديم ، وذمِّهم لشعر المحدثين ، وقال : إنها عيبٌ قبيح ، ومن فعل ذلك فإنما غَضَّ من نفسه ،

---

(١) ٧و٨ الشعر والشعراء .

(٢) ١/١٨ الكامل للمبرد .

وجعل هذا ناشئاً عن جهل بنقد الشعر وتمييزه[١] .

وكان الجاحظ هو السابق إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحارب هذا التعصب الممقوت للقديم لقدمه ، وآراؤه فى ذلك فى كتابيه : الحيوان والبيان والتبيين كثيرة ؛ ففى الحيوان ينكر الجاحظ على المتعصبين للقديم فعلهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر ، لعرفوا موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان »[٢] .

وفى القرن الثالث أيضاً كثرت مؤلفات النقاد فى الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات الشعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبى منظم فى النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المرائى وشعراء المدن العربية ، ووضع فى الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفنى للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذى قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع فى الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وفى الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً ؛ ويذكر ابن سلام فى « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضاً ويقسمهم طبقات عشرة ، ولا يذكر أحداً من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذى ألف كتابه : الشعر والشعراء ، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى ؛ وهذا يدلنا على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديراً للشعر الجيد وحده ، بصرف النظر عن قائله وعصره . وذلك

---

(١) ١٣ و ١٤ « رسائل ابن المعتز » تأليف محمد عبد المنعم خفاجى .

(٢) ٣/٤٠ الحيوان .

يذكرنا بجمع المفضل وأبي زيد الأنصاريّ للشعر العربيّ ، فقد جمع المفضلُ في مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين ، وللقليل جداً من المخضرمين ؛ أما أبو زيد الأنصاريُّ ففي كتابه « الجمهرة » مختاراتٌ للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، فكأنه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلي وحده ، بخلاف المفضل .

وألف ابن المعتزّ أيضاً كتاباً في طبقات الشعراء المحدثين ، طبع في أوربا ، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذِكرُ الشاعر وحياته ومذهبه الفني في شعره ، ونماذج من مختارات شعره ، ولكنَّ الكتاب وقفٌ على المحدثين وحدهم ، من بشار إلى عصر ابن المعتز ، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار ، وطبقة أبي نواس ، وطبقة أبي تمام والبحتريّ . وهذا يدلنا على إعجاب ابن المعتز بالمحدثين ، وتقديره لبلاغتهم وشُغله بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حدّ ما .

— ٧ —

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرنٍ بالنقد والنقاد ؛ وظهرت فيه أصولُ كتب النقد الأدبي مثل : نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ ، ونقد النثر المنسوب إليه أيضاً ؛ ومثل أخبار أبي تمام للصوليِّ م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمديِّ م ٣٧١ هـ والوساطة للجرجاني م ٣٩٢ هـ وإعجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ .

كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٦٣ هـ صاحب « العمدة »

وابن سنان الخفاجى م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجانى صاحب الأسرار والدلائل م ٤٧١ هـ .

وكان النقاد فى هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ ، فلم يتعصبوا للشعر الجاهلى لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكّموا الذوق وحده فى كل شىء ، حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الآمدى فى الموازنة ، والجرجانى فى الوساطة ، وابن رشيق فى العمدة ، وسواهم ؛ قال الآمدى فى كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلمَ من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب . وقال صاحب « الوساطة » فى أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظره هل تجد فيها قصيدة تسلمُ من بيت أو أبيات ، لا يمكن لعائب القدحُ فيه ، إما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقدَ الناس فيهم أنهم القُدْوة والأعلام والحجةُ ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبةً مسترذلةً ، ومردودةً منفية ، لكن هذا الظن الجميلَ ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظِّنّةَ عنهم ، فذهبت الخواطر فى الذبّ عنهم كل مذهب . وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام [1] ؛ ولو تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبينت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التى يشهد

---

(١) ص ٣ و ٤ الوساطة .

القلبُ أن المحرّكَ لها ، والباعث عليها ، شدةُ إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس ، لأيقنت بما ذكرت

كما أزرى الآمدى والجرجانى بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين[1] : كالأصمعىّ الذى أنشده اسحاق الموصلىّ

هل إلى نظرةٍ إليك سبيل ... فيروّى الصدى ويُشفى الغليل
إن ما قلّ منكِ يكثرُ عندى ... وكثير ممن تحبُّ القليلُ

فقال : لمن تنشدنى ؟ قال : لبعض الأعراب ، قالَ : هذا والله هو الديباجُ الخسرُوانىُّ ، قال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فقال الأصمعى : لا جرمَ والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بيّنٌ عليهما ؛ وكابن الأعرابى الذى أنشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبى نواس أنكره .

ونقد الباقلانى فى إعجاز القرآن معلقة امرىء القيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بِسَقْطِ اللّوى بين الدخولِ فحوملِ

نقداً طويلا ، وهو أول نقدٍ أدبى مفصلٍ لقصيدة كاملة من الشعر العربى

— ٨ —

وفى العصور الوسطى ضعفت الملكات ، وعقمت الأوزان ، وتضاءلت الفطرُ الأدبية السليمة وتعصبَ العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ،

---

(١) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ، لا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد إجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث .

— ٩ —

وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الإعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من أولي الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جله منتحل مختلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب أبيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب العروضية ، والتكرير الساذج ، والاقتسار المكروه ، والنجوز المعيب ، الذي يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه المخبرون به ، وإنما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، ويروى المحكم منه وغير المحكم على السواء[1]

فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلي مآخذ أهمها :

أولا — ضعف وحدة القصيدة . وفي مناقشة هذه الفكرة نكتفي بهاتين الكلمتين :

---

(١) ١٠٣ مراجعات للعقاد .

قال نولدكة المستشرق الهولندى المشهورُ : « فى أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته ، بأن يجعل كلّ قسمٍ من أقسامها خاصا بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التى يحياها البدوُ فى الصحراء .

وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد المشهور :

وهناك شىءٌ يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربى ، هو أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرةٍ واحدة ، أو وصفاً لشىء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منعزل عن الأول ؛ وهذا ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابعٌ للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ؛ ولا يقوم الشاعر المبرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيراً ما يحصر شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ؛ وإذا نوع الموضوعَ فهو يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريداً بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء ، محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة ، وليس فيه ما يُؤخذ عليه غير كونه يُنافى ما يفعله شعراء الغرب ، ولكل أمةٍ سياقٌ ونزعة ليست لأختها ؛ وأعتقد أن الكتاب الذين يُزرون بشعر شعرائنا على الأطلاق ، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيراً عن النهج الذى يمشى عليه المبرزون من هؤلاء ؛ والسبب هو ما قدمته من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة ، وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقدانه عندهم من

جهة أخرى . وقد هم كثير من الشعراء المتفلتين من السلوم المصرية ، بتقليد الغرب فى شعره ، فلم يمكن ما أتوا به غربيا ولا شرقيا ، ولم يوفقوا إلا فى ألوان من من الشعور ، هى مشتركة بين الأمم جميعا ؛ ومهما تمرد الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات فى أمته ، فهو لا يستطيع أن يطفر مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالف ما ألفه شعبه ، فيقطع الوشائج القوية التى تربط الحاضر بالماضى .

ويعيب العقاد الشعر الجاهلى ثانيا بأنه لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ؛ وذلك لا يسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع المأثور ، فشعراء المعلقات ومذاهبهم الفنية فى الشعر معروفة ؛ ويقول الدكتور طه حسين بك فى كتابه « الأدب الجاهلى » : أما مضر فكان لها فى الجاهلية شعراء ، يتخذون الشعر فنا ، يمثلون به نهضة فنية عقلية ، فى هذا الاقليم من جزيرة العرب .

ويعيبه ثالثا بهلهلة صياغته ، وما فيه من عيوب عروضية ، وتكرار ساذج ، وتجوز معيب . وفى هذا ولا ريب مغالاة لا يكاد يسلم بها دارس للأدب الجاهلى شعره ونثره .

وكانت ثورة النقد الكبرى بين الدكتور طه حسين بك وبعض النقاد والباحثين ، حول الشعر الجاهلى ، ذات صدى بعيد فى دراساته وفى منهج النقد الأدبى . وآراء الدكتور طه حسين بك فى الشعر الجاهلى ، ترتكز على أساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلى ، ويؤكد الدكتور

هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، منها أن المأثور منه لا يمثل حياة الجاهليين الدينية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسى بغيرهم من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، فالمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروىٌّ باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الاسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر على القحطانيين ؛ فوق أن الشعر الجاهلى لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية المتعددة ، التى لاشك فى اختلافها ؛ ويشرح الدكتور أثر البواعث السياسية والدينية فى الانتحال ، وعمل القصاص والرواة ؛ ويبنى على ذلك كله رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن لليمنيين لغة تخالف لغة قريش ، ولأن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كلُّ الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا . وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين .

ويرى أنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن فى الشمال ، فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة قريش ، ويتردد فى قبول الكثير منه ؛ وأما مضر فكان لها شعراء ، يتخذون الشعر دِنًا ؛ وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم ، على ضوء نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى ؛ ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه ؛ وجعل الشعر أصلا فى مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالموالى ؛ وبذلك يعكس نظرية القدماء فى انتقال الجاهلى بين القبائل .

وهذه الأراء كانت موضع جدل صاخب ، ومناقشات كثيرة ، وكتب أُلفتْ حولها . ولا داعى لذكر شىء عنها ، فهى معروفة واضحة . وفى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » تفصيل لكل ذلك

ولا شك أن ازراء بعض النقاد المحدثين بالشعر الجاهلى ، ودعوتهم إلى تركه والانصراف عنه ، جور فى الحكومة الأدبية ، وتعصب ظالم على قديمنا الموروث

الشعر الجاهلي

بين التجديد والتقليد

— ١ —

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بحديث التقليد في الشعر الجاهلي ، لأنه كله عندهم جديد بكر ؛ ومظاهر التشابه الفني بين القصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا نسلم بالتقليد في شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلي من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلنقل إن ذلك من توارد الخواطر وإتفاق الشاعرية ، أو لنذهب إلى ماذهب إليه ابن رشيق في عمدته : من أن ذلك « استلحاق » ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيبا وقد يصنع المحدثون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلي يخطىء كما يخطىء غيره ولكنهم لا يسلمون بأنه ينسج قصيدته على نهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ؛ ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة في شعر الطبقة التي تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، وجعل في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ؛ وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس وزهيراً والنابغة ؛

وفى الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً ، ووافقه على ذلك صاحب الجمهرة أبو زيد الأنصارى ؛ ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجمعهم عصر واحد ، مما يؤدى إلى أن يكون فى كل طبقة شعراء تأثر بهم إخوانهم فى الطبقة نفسها ؛ ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا الصلات الفنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ؛ بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتى مطلعها : «ذهبت من الهجران فى غير مذهب» وقصيدة امرىء القيس

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

رغم تشابههما فى شتى مظاهر الشاعرية والخيال ، ورغم أن علقمة متأثر بامرىء القيس فى قصيدته وناسج على منوالها ؛ لا يذكر النقاد شيئاً عن مظاهر التشابه الفنى بين القصيدتين . وهناك قصيدتان أخريان هما : معلقة عمرو بن كلثوم : «ألا هبى بصحنك فاصبحينا» ، ومجمهرة أمية بن أبى الصلت : « عرفت الدار قد أقوت سنينا » والتى نسج فيها أمية على منوال قصيدة عمرو واحتذاه فيها ؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شىء ، ولا يلمون بحديث هذا التقليد الفنى الغريب ؛ وهناك الكثير من أبيات الشعر تجدها نفسها مكرورة فى شعر كثير من الشعراء ، وقد لا نستطيع أن نشك فى روايتها ، ومع ذلك فالرأى السائد عندهم أن ذلك أثر لاتفاق الشاعرية .

وعلماء الأدب يعرفون أن الشعر كان فى اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول فى قيس من مضر ثم صار إلى تميم ، ولا يخالف فى ذلك إلا الدكتور طه حسين بك الذى رأى أن الشعر كان فى مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن

ظلموا الى ؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا ببحث آثار هذه الوراثات الشعرية المختلفة .

ويقولون إنه كان لكل شاعر فى الجاهلية راوية يروى له ويأخذ عنه نهجه فى الشعر ويتتلمذ عليه ويتأثر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ، وطرفة راوية المتلمس ، والأعشى راوية المسيب بن علس ، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوى معاً ، والحطيئة راوية زهير ، كما كان الفرزدق وهدبة راويتان للحطيئة ، وأبو حية النميرى راوية للفرزدق ، وجميل راوية لهدبة ، وكثير راوية لجميل ، فى العصر الإسلامى . ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية فى الشعر فى حاجة إلى بحث كثير للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية ، ولا نرى لذلك أثراً يذكر فى بحوث النقاد القدماء .

ومدرسة « المحسنين » من الشعراء الجاهليين كزهير وتلاميذه وكالنابغة وأوس وطفيل الغنوى والنمر بن تولب ، لا تزال فى حاجة ملحة إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفنى ونشأته وأثره فى الشعر العربى ، وإن كان الدكتور طه حسين بك قد ألم بجوانب من هذا البحث فى « الأدب الجاهلى » .

وإذا كان النقاد القدماء قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ، وأغفلوا أثر الوراثات الشعرية بين هذه الطبقات ، ولم يذكروا شيئاً عن مظاهر الأستاذية والتلمذة بين هؤلاء الشعراء ، فخليق بنا أن نقسمهم من جديد تقسيماً أدبياً إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نحكم على

عمل كل طبقة ومدى تأثرها بمن قبلها وأثرها فى الطبقة التى تليها ، ليستطيع الباحث أن يفهم الشعر الجاهلى فهما جيدا على أسس جديدة ، كما يفهم كل ما يتصل بطبقة بشار وطبقة أبى نواس وطبقة أبى تمام والبحترى مثلا من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البارودى ومذهب شوقى ومذهب غيرهما فى الشعر الحديث .

— ٣ —

وبعد فنحن لا نجد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات الأدبية :

١ — طبقة مهلهل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، وتأبط شرا م ٥٣٠ ، وأبو دؤاد الأيادى م ٥٤٠ ، وسواهم . وزعيم هذه الطبقة مهلهل ، وهو أول من نقل الشعر العربى من طور الأراجيز والمقطعات الصغيرة إلى مرحلة القصيد ، فهو أول من قصد القصائد وقال فيها الغزل ، وأول من هلهل نسج الشعر وخاصة الرثاء أى رققه وهذبه ، وشعره من أعلى طبقات شعر المتقدمين كما يقول ابن نباتة ، وهو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير فى أخيه كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤م ، وقصيدته القافية : « جارت بنو بكر ولم يعدلوا » إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هذه الطبقة هى التى مهدت سبيل التجديد فى الشعر أمام مرىء القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هذه النهضة الفنية الكبيرة

٢ — والطبقة الثانية طبقة امرىء القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها : علقمة م ٥٦١ ، والمرقش الأكبر م ٥٥٢ وهو أول من أطال المدح ، والمرقش الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأفوه الأودى م ٥٧٠ ، والمتلمس م ٥٨٠ ، والمثقب العبدى م ٥٨٧ ، والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ، وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تتلمذ فى الشعر على أبى دؤاد الإيادى وعلى خاله المهلهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعهى وقرب مآخذ الظلام وقيد أوابده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ورقق الأسلوب وجعله عذبا فى جزالة وجمال ، وأول من شرع للناس مذهب هذا الغزل القصصى الحلو ، وهذا الطرد الجميل القوى ، ولا تزال كلماته « قيد الأوابد » ، « ونؤوم الضحى » وسواهما ذات رنين بعيد ؛ والذى فى وشعر امرىء القيس — كما يقول الآمدى فى الموازنة — من رقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء فى الجاهلية والاسلام ؛ وهذه الطبقة على أى حال ورثت الشعر عن الطبقة التى سبقتها أثرت فى الطبقة التى تليها

٣ — والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٣٠ ، والأعشى م ٦٢٩ وهو أول من تكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ ، وحاتم م ٦٠٥ وعمرو ابن كلثوم م ٦٠٠ ؛ ولبيد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبى الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقةهو النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم فى سوق عكاظ ، والذى تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .

وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصنعين » وأستاذ الحطيئة وسواه من الشعراء .

٤ — والطبقة الأخيرة هى طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء الذى عاشوا فى الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم النقاد « المخضرمين »

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول إنه كان لكل طبقة من هذه الطبقات مذهب فنى خاص ، وكانت هذه المذاهب أثراً لوراثات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعا

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ، وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء واتخاذه وسيلة للثراء ، وأداة للغناء ولسانا لأذاعة مفاخر القبيلة ومحامدها وهجاء خصومها ، وهذه النهضة الفنية الكبيرة التى بلغها الشعر فى نجد حيث الهجرات العربية والحروب المستمرة ؛ كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلى دائما إلى الامام ، وتدعو إلى تجويده وتهذيبه والتجديد فيه

وقد تتاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة وأثرها فى الشعر الجاهلى خاصة والعربى عامة .

الطبع والصنعة

فى الشعر الجاهلى

— ١ —

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير فى تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للاسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبى من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، وكان صاحب موهبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد فى معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى فى تحديد معناها أن نجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ؛ أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه الفنى بها ، وقصده إليها ، وتعمده لها فى شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال

للجمال ، و يستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

— ٢ —

ويجمع جمهور النقاد فى القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء فى العصر الجاهلى : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمعى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الحطيئة — وهو شاعر إسلامى مشهور — عبد لشعره ، قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعى شعره حين وجده كله متخيراً مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعى يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، و يعده النقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبى وعظيم مكانته فى الشعر .

— ٣ —

ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتتابع ، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ؛ كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى

قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة فى الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبرا لحسن شعره ، وتتلمذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوى كذلك ، وكان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبيانى أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ، وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرىء القيس ينفى عنه الصنعة والتصنيع ، وفرق بين أن يجىء عفواً فى شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد فى سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها — خوفاً من النقد والنقاد — بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة

أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامى وسواه .

وكان هذا المذهب الفنى فى الشعر الجاهلى ـ مذهب الصنعة والتصنيع ـ أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كعكاظ وسواه بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة فى عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها من الهدايا والألطاف من ممدوحيهم ؛ وكان ارتباط الشعر الجاهلى بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى التجويد والتجديد فى المعانى من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفة وامرىء القيس وهلهل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهى من أشهر القصائد الجاهلية فى البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبى الموهوب ، وليس فيها شىء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرىء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومى والحربى والسياسى لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنترة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ،

ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وقسوتها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هي :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

لبعد ما بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلي

— ١ —

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزراية بالشعر الجاهلي ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ؛ وعيبه حينا بخلوه من الشعر التمثيلي والقصصي ، وحينا بتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية الباقية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحينا آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً ضئيلا ؛ وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ؛ وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعوبية الحديثة التي نرى مظهرها باديا في تنقص كل ماهو عربي أو قديم والتعصب لكل ماهو غربي أو حديث

ولاشك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكومة الأدبية وإسرافا ومغالاة كثيرين ، «فلكل شعر جيد — كما يقول الدكتور طه حسين بك في الأدب الجاهلي — ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم ، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه ؛ وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية

متصل بزمانه ومكانه ؛ فازدراء الشعر الجاهلى غلو ليس أقل إمعانا فى الخطل من ازدراء الشعر الأجنبى »

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلى وتذوقه صعوبات كثيرة، أهمها : صعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد . ولكن ذلك لا يمكن أولا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفنى الرائع الذى نجده فى الشعر الجاهلى، فضلا عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فان الشعر الجاهلى أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم

فهو من حيث انه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك ولغيره أيضا الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه وراءنا ظهريا

فى الشعر الجاهلى جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفنى الذى يمثله الشعر الجاهلى ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أى حد يصح أن نجارى هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلى القديم ، وإلى أى مدى يصح أن نسير فى الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية فى البحث والمناقشة :

— ٢ —

١ — أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلى : البساطة والصدق

والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق فى الأداء . وهذا شىء يسلمه النقاد للشعر الجاهلى تسليما ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون فى ذلك مايدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لايدعو إلا إلى الاعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة فى الشعر الجاهلى هى نفس مايدعو إليه بقادنا المحدثون ودعاة التجديد فى الأدب العربى الحديث ؛ « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والاخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسنا له » كما يقول الدكتور ضيف (١)

٢ — ويمتاز الشعر الجاهلى أيضا بالزهد فى المحسنات وألوان التزيين الفنى ؛ وهذه سمة غالبة عليه . وأدباؤنا المحدثون لايزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصرى الحديث فى أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعى الذى ورثه عن العصر التركى والعثمانى وأواخر العصر العباسى إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برىء الشعر الحديث من عاهته وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت فى الآداب الأوربية أيضا صبغة الزخرف الفنى فى العصور الوسطى ؛ كما حدث فى الأدب الانجليزى بعد عصر اليصابات ، وفى فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلى يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؛ ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟

٣ — ومن خصائص الشعر الجاهلى متانة الأسلوب وقوته وجزالته

---

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب

وأسره ، وللبيئة البدوية أثر بعيد فى ذلك ؛ وقد سار المحدثون فى العصر العباسى على هذا النهج حينا ؛ وحينا آخر أغرقوا فى العذوبة والسلاسة والسهولة التى ورثوا بعضها عن العصر الأموى ومدرسة المذريين التى شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والرقة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كابن الأثير فى المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا فى الشاعر وميلا منه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصرى المشهور .. ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبى ، وارهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا فى حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التى تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية فى هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز فى إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة فى نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلبا ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة فى مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شىء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغرابا وتعقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكلفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة فى قصائدهم إنما يفعلون ذلك تقليدا فحسب وفى مطلع حياتهم الفنية التى يكثر فيها الناشئون من التقليد ؛ ونحن على أى حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلى لجزالته ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة فى الشعر الجاهلى .

٤ — ومن خصائص الشعر الجاهلى أيضا القصد إلى المعنى فى إيجاز ويسر وقلة إطناب ، ولا شك أن العصور الأدبية التى تلت العصر الجاهلى وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشاعر عن هذا الاتجاه ، ودفعته إلى الأطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالأطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للأطناب مواضع وللايجاز مواضع كقدامة فى نقد النثر وابن سنان فى سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر تآثر الايجاز أو اعمد إلى الأطناب ؛ وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدى معانيك فى رفق ويسر وقلة فضول . وفى الآداب الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد فى التصوير البيانى والاكتفاء بشرح الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

٥ — ولاشك أن أهم طابع للشعر الجاهلى بعد الذى ذكرناه سابقا هو هذا الطابع البدوى الواضح الذى يفجؤك فى شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر للبيئة والحياة الجاهلية . ونحن ندعو كما يدعو كل منصف إلى ترك هذا الاتجاه فى الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة فى القرن العشرين كما أن إبراز هذا الطابع البدوى فى شعر الشاعر المعاصر يكون تقليدا سخيفا لامبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة فى شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع فى الشعر الجاهلى :

١ — شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على

هذا النهج ، فملأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمل والظليم والمدن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه ، فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من بيد تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلما

تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

وهذه دعوة جديرة بالعناية ، خليقة بالايثار . وقد دعا المجددون فى الأدب الحديث وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسيته و بيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدامى فى أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربى الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، ويكون صاحب هبة فنية فى نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته و يؤثر فيها ، و يمثلها فى جدها ولهوها وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب — ومن آثار هذا الطابع البدوى فى الشعر الجاهلى أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لايشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بذكر الراح ، وكتأبط شرا فى قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمــــه ما يقل

والتى يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن قتيبة فى أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ؛ فقد صور

نهج العرب فى وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة إلى الممدوح تخلصا إلى مدحه واستجلابا لرضائه وسنى ألطافه ، وقال : والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام[1] . وقد سار الكثير من المخضرمين والاسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار؛ كما أكثر الكثير منهم من بدئها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذى دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح، قال

وصف الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بمكاظ فحومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمأل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه ، أليس هو الذى يقول .

تبكى على طلل الماضين من أسد ثكلت أمك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيه وتمثيله لحياة الشاعر وآرائه فى الحياة... وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين فى القصيد، ورأى مع من رأوا أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار[2] وأنه ليس

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء
(٢) ١/١٩٩ العمدة

بالمحدث من الحاجة إلى وصف الأبل والقفار لرغبة الناس فى عصره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان [1] .. وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الفنى فى القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ؛ ولكن ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه فى شعره أبدا ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكننا نقول إن المعيب هو التزام بدء القصيدة بوصف الاطلال القديمة تقليدا للجاهليين ، وإذا التزم شاعر معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج ، لم نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملكاته الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلدا لا نصيب له من الشعور بالحياة والاحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

جـ — وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى الموروث ، وهى كثرة الغريب والوحشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى وحدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم . وما أروع ما يقول صفى الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٧٥٠ هـ .

اعنى الحيزبون والدردبيس ... والطخا والنقانخ والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها ... حين تروى وتشمئز النفوس

---

(١) ٢/١٧٩ .

وقبيح أن يذكر النافر الوحـ ـشى منها ويترك المأنوس
أين قولى : هذا كثيب قديم ومقالى : عقنقل قدموس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو الى استعمال هذه الألفاظ ، أو يرتاح قلبه حين سماعها ، فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

— ٣ —

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه . أنصوغ أسلوبنا على الصور القديمة التى يمثلها الشعر الجاهلى ، أم نستمد صوره من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لاشك أن الجمل كان عماد الحياة فى العصر الجاهلى ، وفى أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطئه بمنسمه وضرسه بأنيابه ، وألقى عليه جرانه ، وناء وأناخ عليه بكلكله ، وقالوا لا ناقة لى فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول النقاد والبلاغيون فى العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التى تتجدد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة فى أساليبنا لنرضى العرب القدامى ، أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضى الجرجانى وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى فى الرأى الثانى ضيراً أو ضررا ؛ وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التى يولدها صورا

جديدة ، يستمدها خياله من حياتنا و بيئتنا وألوان الحضارة التى نعيش فيها ، والاختراعات التى تجد دائما بيننا والتى نبعد اللغة عنها ونحاول ألا نستمد منها صورنا الأدبية .

* * *

و بعد فهذه هى سمات الشعر الجاهلى ، والصلة الفنية بينه و بين حياتنا الفنية الحاضرة ، وما يصح أن نقلده فيه وما لا يصح .

ونحن لا ندعو إلى تقليد البلاغة القديمة ، ولا إلى تقليد الشعراء الجاهليين تقليدا بعيدا عن مناهج الفن والشخصية والموهبة الأدبية ، فإن ذلك التقليد يبعدنا عن أداء رسالتنا الأدبية على أكمل وجوهها ، وإنما نقول : افهموا هذه البلاغة فهما جيدا ، وربوا ذوقكم الأدبى بالأدمان على قراءتها وقراءة ما سواها من البلاغات ، لتصلوا إلى مرحلة الشخصية الذاتية فى الأدب والشعر ، ولتكمل مواهبكم وتستقل بالإبداع والتجديد فى الفن والشعر والأدب والحياة ...

موازنة أدبية

بين قصيدتين من عيون الشعر الجاهلي

---

١ — أما الأولى فهى معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ — ٦٠٠ م) . ومطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وأما الثانية فهى مجمهرة أمية بن أبي الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهى فريدة فى نوعها فهى جديرة حقا أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذى انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتنبيه للملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٣ — ٥٧٩ م) ، حتى لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها فى المجد والنفوذ والسلطان . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر مما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقته أمام الملك عمرو بن هند وهو الجزء الذى هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع للوشاة والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

ثم أكمل القصيدة كلها ، وأنشدها فى سوق عكاظ ، وقد عدتها تغلب سجل مجدها وفخارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ويقال إنها أضافت إليها الكثير حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت وقال بعض شعراء بكر فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها من كان أولهم يا للرجال لفخر غير مسؤوم

وأما مجهرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ، وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان فى الطائف بين قبائلها ، ولم يبدأها بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زينب » وعفاءها ولعب الرياح المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف الآباء فقال فيما قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا
وتخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا

بأنا النازلون بكل ثغر وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومناقبهم وما أرصدوه لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان الأقوياء ، ووراثتهم للمجد عن كبرى نزار إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التى أضافها أمية إلى قومه.. ولا ندرى شيئا عن التاريخ الأدبى للقصيدة ، وان كنا نرجح أن الشاعر نظمها فى مفاخرة من هذه المفاخرات التى تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة فى العصر الجاهلى :

٣ — تتفق القصيدتان فى الموضوع والوزن والقافية ، وفى خيالهما الفنى الغالب على القصيدتين ؛ وتتفقان كذلك فى هذه المبالغة الواضحة فى الفخر ، مما لا يؤثر نظيرها من المبالغات فى معانى الشعر الجاهلى إلا قليلا .

كما تتشابهان فى هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عند ما ينتقل الشاعران إلى الغرض الأصلى من قصيدتيهما وهو الفخر . وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشاعرين ، فارتجال عمرو لقصيدته ومواقف الفخر فيها مما يقتضى السهولة ، ونشأة أمية فى الطائف ذات الخصب والزروع والثمار والهواء المعتدل والجو الجميل وتنقله فى رحلاته التجارية بين الشام واليمن وثقافته العامة وقراءته فى الكتب السماوية ، كل ذلك رقق من طبعه وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة وصقل من ملكاته الأدبية فظهر أثر ذلك فى شعره وضوحا وسهولة وانسجاماً .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك فى كثير من معانى الشعر وأساليب الفخر ؛ ومن مظاهر ذلك الاتفاق هذه المعانى والأساليب والأبيات :

١ — قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا

أى حتى يظهر الشرف لنا . وقال :

ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التى يخوض قومه عليها المعارك :

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا

ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثة المجد فى بيت أمية أبلغ فى الفخر من وراثة الخيل فى بيت عمرو ، وإن كانت وراثة الخيول من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتاداً دليل الشجاعة والبطولة وحب النضال . وقول أمية « فأورثنا مآثرنا البنينا » أبلغ من قول عمرو : « ونورثها إذا متنا بنينا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء فى حياتهم ، أما عمرو فذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيول بعد وفاة آبائهم ، فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار فى حياة الآباء ، وهذا قصور فى الفخر . وقال أمية « البنينا » وقال عمرو : « بنينا » فشهرهم أمية وأبان عن وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق »

فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم وطهارة أعراقهم ، وهى زيادة لا نظير لها فى قول أمية .

وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت معد » من قول عمرو فقال :

وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هار بينا

ب — ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أى نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون إذا لقينا » فتجد قول عمرو أبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر أمية إلا الضرب ، وإن كان يكنى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد فى طلب الأعداء ، ولكنه على أى حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » :

جـ — ويقول عمرو : « وأنا المانعون لما أردنا » ، ويروى : الحاكمون بما أردنا ، فيقول أمية . « وأنا المانعون إذا أردنا » .

د — ويقول عمرو .

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويروى من مجمهرة أمية .

وأنا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

هـ — ويقول عمرو .

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب فى الحروب مجربينا

وقد روى من المجمهرة .

وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً فى الحروب مجربينا

ج — ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نسج على منواله أمية ؛ كما تمتاز بتنوع أغراضها ، و بطولها ، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهى إحدى المعلقات السبع وهى قصائد تحتل الذروة فى الشعر الجاهلى وقد انتخبت من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال ابن قتيبة فى قصيدة عمرو : وهى من جيد شعر العرب :

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلا فهى نحو ثلث قصيدة عمرو، وقد وضعها النقاد مع المجمهرات . والمجمهرات سبع قصائد من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصارى فى « الجمهرة » ، وأصحابها هم :

ا — عبيد بن الأبرص، ومجمهرته مشهورة وهى فى الحكمة ومطلعها .

عيناك دمعهما سروب كأن مثانيهما شعيب

والسروب : الكثيرة الجريان . والشعيب: المزادة . . وتشتهر باضطراب وزنها ؛ ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تعذيب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ب — عدى بن زيد ، ومجمهرته فى الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد نعم ورماك الشوق قبل التجلد

وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتتفق معها فى بعض الأبيات مثل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

ب — النمر بن تولب ، ومجمهرته فى الحكمة أيضاً ومطلعها : « تأبد من أطلال عمرة مأسل » .

د — أمية بن أبى الصلت ، ومجمهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .

ه — بشر بن أبى خازم ، ومجمهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم وعزهم ، ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأنعم ؟ تعدو معالمها كلون الأرقم

و — خداش بن زهير ، ومجمهرته فى الفخر بقومه أيضاً ، ومطلعها :

« أمن رسم أطلال بقوضح كالسطر » .

ز — عنترة ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يعدها بعض النقاد من المعلقات والآخرون من المجمهرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لاتفاق موضوعاتها ؛ إذ أن موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد :

فمدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ ، وأمية عام ٦٢٤ م ، وعنترة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذاً إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية فى هذه القصائد ؛ فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً فى النواحى الفنية

والفطرة الأدبية وفى خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية فى حكم النقد الأدبى ، وهى على أى حال تلى المعلقات فى الجودة والمكانة الأدبية .

ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصيدتين فوضعوا الأولى فى صف المعلقات والثانية مع المجمهرات ، وفى الحق أن شاعرية عمرو فى معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية فى مجمهرته : سواء فى الأسلوب أو المعانى أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

٤ — ويرى الدكتور طه حسين بك فى كتابه « الأدب الجاهلى » أنه لايمكن أن تكون معلقة عمر أو أكثرها جاهلية. وقدشك الرواة فى بعضها ويرجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب، وتمثل شاعراً جاهلياً، وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها، وهى شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو، وإن كان هذا لا ينفى أن تكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدى الرواة .

ونلاحظ على مجمهرة أمية خلوها من الصبغة الدينية التى اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها فى شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الدينى وحده . وتقليده فيها لعمرو بن كلثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية . وقد يكون السبب الذى جعل أمية ينظم مجمهرته محتذياً فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذى وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة

أدخلوا على مجمهرة أمية بعض الأبيات من معلقة عمرو لتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع فى القصيدتين ؛ ذلك لأن مجمهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها الأبيات المتشابهة لا يبقى منها فى مقام الفخر إلا القليل من أبياتها ، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة فى الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه محدودة .

ورواية أبى زيد للقصيدتين فى كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولا ، وبأن المعانى المتشابهة فيهما نتيجة لاتفاق الشاعرية أو للتقليد الأدبى ثانياً ؛ وأبو زيد م ٢١٥ هـ راوية ثقة .

٥ — وبعد فنستطيع أن نقول إن أمية قلد فى مجمهرته عمرو ابن كلثوم فى معلقته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معانى الفخر وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو .

وهذا التقليد الفنى ليس بعجيب بين الشعراء فى شتى العصور وليس بغريب فى الشعر الجاهلى نفسه ، فأنت ترى أن الشاعر الجاهلى كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له فى أسلوب أو معنى أو بيت وأنت تعرف قول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبي علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وتعرف غير ذلك من مظاهر التشابه الفنى أو التقليد الأدبى بين الشعراء الجاهليين .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتي علقمة وامرىء القيس

أولا :

١ — علقمة بن عبدة التيمي شاعر جاهلي مشهور ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفي عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرىء القيس بسنة واحدة .

ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبتَ من الهجران في غير مذهب ولم يكُ حقا كل هذا التجنب

ومطلع قصيدة امرىء القيس

خليلي مُرّا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

٢ — والموازنات الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح معدومة في القديم والحديث .

قالوا : إن علقمة خاف امرأ القيس وكان صديقا له ، فتذاكرا القريض ، وادعاه كل واحد منهما على صاحبه ، ولجا في ذلك ؛ فقالت لهما «أم جندب» زوج امرىء القيس : قولا شعرا تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، «على قافية واحدة وروى واحد[1]» ، لأنظر أيكما أشعر ، فرضيا بحكمها ، وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعهما ، ولما فرغا من انشادهما قالت أم جندب لبعلها : علقمة أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت : لأنك قلت :

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء (ص ٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواة

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

فزجرت فرسك ، وجهدته بسوطك ، ومريته بساقك . وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلِّب

فأدرك الطريدة وهو ثان من عنانه فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ، ولا زجره . فتربد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر منى ولكنك له وامق وطلقها فخلفه عليها علقمة

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة[١] ، وأبو الفرج[٢] ، وصاحب الموشح[٣] ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزبانى على هذه القصة رواية أخرى عن أبى عمرو الشيبانى يقول فيها[٤] : تزوج امرؤ القيس امرأة من طىء ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابتنى بها أبغضته ، فجعلت تقول : « أصبحْ ليلُ ، يا خير الفتيان أصبحتَ أصبحتَ » ، فينظر فيرى الليل كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة وكان من فحول شعراء الجاهلية وكان صديقا له ، فقال أحدهما لصاحبه أينا أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : انعت ناقتك وفرسك وأنعت ناقتى وفرسى ، قال : فافعل والحَكَمُ بينى و بينك هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس : « خليلى مرا بى على أم جندب »

---

(١) ٥٨ الشعر والشعراء .

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ١٢٨ .

(٣) ٢٨ الموشح للمرزبانى .

(٤) ٢٩ المرجع .

وقال علقمة : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » ؛ فلما فرغا من قصيدتيهما عرضاها على الطائية امرأة امرىء القيس ، فقالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، قال لها : وكيف ؟ ، قالت : إنك زجرت فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك ، تعنى قوله :

فللزجر أهوب وللساق درة وللسوط منه وقع أخرج مهذب (١)

وإن علقمة جاهر الصيد فقال :

إذا ما اقتنصنا لم نقده بجنة ولكن ننادى من بعيد الاركبى

هذه هى حكومة أم جندب الأدبية بين الشاعرين ، فى كثير من رواياتها التى تختلف قليلا وتتفق كثيرا ، والتى لا تخرج عن أن أم جندب فضلت قصيدة علقمة على قصيدة امرىء القيس .

٣ — ويرتاب بعض الباحثين فى صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكر من شعر امرىء القيس (٢) .

---

(١) الهوب : ألهب جريه حين زجره . درة : أى إذا غمز در بالجرى . الأخرج : الظليم وهو ذكر النعام والأنثى خرجاء فى حال لونه وهو سواد وبياض لون لرماد والأخرج الرماد . مهذب : مسرع فى عدوه .

(٢) ٢١ و٢٢ تاريخ النقد الأدبى عند العرب للمرحوم الأستاذ طه ابراهيم ؛ وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من أن ابن المعتز أنكر قصيدة امرىء القيس ، ذلك أنه يعتمد فى ذلك على المرزبانى فى الموشح : ونص كلام المرزبانى هو : قال المرزبانى بعد ذكره الحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبى ، ورواه أيضا ابن المعتز وذكره فيما أنكره من شعر امرىء القيس » (ص ٣٠ الموشح)

وكلمة أنكره هنا بمعنى نقده وعابه لا بمعنى إنكار القصيدة ودعوى أنها منتحلة ،

وذلك هو رأى الدكتور طه حسين بك فى الأدب الجاهلى الذى رأى أن هذه القصة منتحلة[١] .

وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية موقفين متعارضين : ففريق يؤيد أم جندب فى رأيها ، وفريق آخر يرى جور حكومتها الأدبية

ومن الفريق الأخير الرافعى الذى عرض لحكومة أم جندب و بين حيفها ، وفضل قصيدة امرىء القيس على قصيدة علقمة ، وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية[٢] .

يقول الرافعى :

وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشىء ؛ لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة ، والمعانى الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرىء القيس ، حتى ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله . ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس فى الصنعة وما أدرى كيف هذا ، فلولا أن الرواة مجمعون على أن قصيدة علقمة مما صح لقلت إنها مصنوعة ، و إن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك هو السبب فى تعنف امرىء القيس على الشعراء و إدلاله بشعره[٣]

وقال : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلها ،

= وذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءة الكتاب ؛ وهب أن الأمر كما يقول هذا الباحث فكلام المرزبانى يجوز أن يحمل على إنكار أبيات من القصيدة لا على إنكارها كلها .

(١) راجع الأدب الجاهلى ٢٢٠ — ٢٢٥ .

(٢) ٢٢٥ — ٣/٢٣٤ آداب العرب للرافعى طبعة ١٩٤٠ .

(٣) ص ٣/٢٢٧ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى طبعة ١٩٤٠ .

فقرعت أنفه على حمية وحنوة ، وهى تعلم أنها لا بد مسرحة فى زمام هذه الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذى توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن فى قصيدة امرىء القيس ما هو أبلغ فى هذه الصنعة من بيت علقمة ، وهو قوله :

إذا ماجرى شأوين وابتل عطفه تقول: هز يز الريح مرت بأثأب (١)

ومن تدبر صنعة امرىء القيس للخيل فى شعره وجد السوط لا يفارقه فلطلما كانت عادته (٢)

ويقول : وما رأيت أحدا من أهل النقد وازن بين القصيدتين ، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس ، وامرؤ القيس يقول فى قصيدته :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب (٣)

والطريف أن الرافعى لم يوازن بين القصيدتين موازنة أدبية وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصيدتين كاملتين دون تعليق .

وعلى رأى الرافعى سار الأستاذ هاشم عطية فى كتاب الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى (٤) ، قال بعد أن عرض أبياتا كثيرة من القصيدتين :

---

(١) يقول الرافعى : ليس بين الناس اختلاف فى أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى ؛ فبالغ فى صفة الفرس ، وجعله على هذه الصفة ؛ بعد أن يجرى شأوين ، ويبتل عطفه بالعرق ؛ ثم زاد إيغالا فى صفته بذكر الأثأب ، وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت (٣/٢٢١ المرجع) .

(٢) ص ٢٢٧/ ٣ المرجع .

(٣) ص ٣/٢٢٦ » .

(٤) ص ١٨٤ .

« والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركا تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرهه ، وكانت ضلعها مع علقمة[١] ، يدركون فى سهولة أنها جارت فى حكمها على امرىء القيس ، لأن الذى قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شىء من الهجنة — إنما هو التنبيه على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه وأن عنده أفانين من الجرى ، فيعطى راكبه من كل حالة مايشبهها من العدو[٢] ، على أنه مع ذلك قال : « فأدرك لم يجهد » وهو يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أى لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر[٣] »

ثانياً :

١ — ونحن هنا فى أول موازنتنا الأدبية بين القصيدتين لا يصح أن نحكم فى هذه الموازنة أى باعث غير البواعث الأدبية فى الحكومة بين القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعيم الشعراء الجاهليين ، فنحن نعلم أن علقمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة امرىء القيس فى زعامة الشعر الجاهلى ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر الجاهلى : « شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شىء » ، يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شىء ، وقال ابن سلام :

---

(١) هذه الأسباب الأولى فى تعليل جور حكومة أم جندب الأدبية مضحكة للغاية

(٢) وهذه أيضا حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

(٣) ص ١٨٤ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى .

لعلقمة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

والثانية : طحابك قلب فى الحسان طروب

والثالثة : هل ماعلمت وما استودعت مكتوم [1]

ولعلقمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعامة مما أشاد به ابن الأعرابى، ولكنه على أى حال لا يصل إلى منزلة امرىء القيس ، فقد وضعه ابن سلام الناقد الكبير فى الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة [2] ، ووضع امرأ القيس فى الطبقة الأولى .

فاختلاف منزلة الشاعرين الأدبية وما تلقيه فى روعنا زعامة امرىء القيس للشعر الجاهلى من أثر عميق باطنى ، كل ذلك لا يصح تحكيمه فى الموازنة بأى حال ، إنما يجب أن ننهج منهجاً عادلا فيما نتناول به القصيدتين من أحكام .

٢ — أما قصيدة امرىء القيس فقد بدأها بالغزل العذب الجميل، وفن امرىء القيس فى الغزل محبب إلى النفوس مستوٍ فى البلاغة ، قريب من القلب والروح ، يقول فيما يقول :

خليلى مُرا بى على أم جندب لنقض لبانات الفؤاد المعذب

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدتُ بها طيبا وإن لم تطيب

فإن تنأ عنها حقبة لا تلاقها فإنك مما أحدثت بالمجرب

---

(١) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٢) ص ٤٩ المرجع .

فلله عينا من رأى من تفرق أشت وأنأى من فراق المحصب (١)
فريقان : منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب (٢)
فعيناك غرباً جدول فى مفاضة كمر الخليج فى صفيح المصوب (٣)

فنجد عذوبة فى جزالة ، وقوة عاطفة فى أسلوب عال من الشعر .

ثم انتقل إلى وصف الدَّوية التى جابها على ناقته فى أسلوب رائع ممتع فقال .

ودوية لا يُهتدى لفلاتها بعرفان أعلام ولاضوء كوكب (٤)
تلافيتها والبوم يدعو بها الصدى وقد أيبست أطرافها ثنى غيهب (٥)

ثم ألم بناقته وشبهها بالحمار الوحشى ووصفه فقال فيما قال من وصفه :

يفرد بالأسحار فى كل سدفة تفرد مياح الندامى المطرَّب (٦)

ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ، وأمتع فى الأسلوب ؛ وامرؤ القيس أوصف الناس للخيل ، فلا غرو أن يجىء هذا الوصف جميلا ممتعا قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :

---

(١) أشت : أكثر تفرقا . أنأى : أبعد . المحصب : المكان الذى ترمى فيه الجمار بمنى .
(٢) جازع : قاطع . بطن نخلة : موضع . نجد كبكب : جبل يستدبره الواقفون بعرفات
(٣) الغرب : الدلو العظيم . الجدول : النهر . المفاضة : الأرض الواسعة . الخليج : الماء المتعاج وهو الذى تعترضه العقبات فى سيره فيتياسر مرة ويتيامن أخرى . الصفيح : العريض من الحجارة . المصوب : المنحدر .
(٤) الدوية : الفلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .
(٥) تلافيتها : قطعتها . الغيهب : الليل الحالك .
(٦) يفرد : يطرب بصوته . السدفة : القطعة من الليل . المياح : المياس .

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (١)
كثير سواد اللحم ما دام بادنا وفي الضمر مشوق القوائم شوذب (٢)

وصف امرؤ القيس خَلْقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ، فقال فيما قال :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفُه تقول : هزيزُ الريح مرت بأثأب (٣)
إذا ما ركبنا قال ولدانُ أهلِنا تعالوا إلى أن يأتي الصيدُ نحطب (٤)

ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرىء القيس الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثمالة ، ورؤيته لقطيع كبير من الصيد ، وامتطاءه فرسه ، وحمله غلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألحّ عليه يجهده ، ويستحثه بساقه وسوطه ويزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيما قال :

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب (٥)

---

(١) الأيطل : الخاصرة . الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش . قائم : منتصب . المرقب : المكان المرتفع .

(٢) البادن : السمين . المشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الجسم الحسن الخلق المنسجم .

(٣) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانبيه . هزيز الريح : صوتها . أثأب : اسم شجر .

(٤) نحطب : نجمع الحطب للطبخ والشواء .

(٥) الألهوب : الجري الشديد . الدرة : الدفعة . الزجر : الزجر . الأهوج : الأحمق . المنعب : الذي يصاح عليه . . . . وبهذا البيت حكمت أم جندب على امرىء القيس بالتقصير وفضلت علقمة عليه .

فأدركَ لم يجهدْ ولم يثن شأوُه يمر كخذروف الوليد المثقب (١)

وذكر معركة الصيد وفيئته إلى بيت مشيد ، وجلوسه فيه هو وأصحابه في يوم جميل ممتع :

فظل لنا يومٌ لذيذٌ بنعمة فقلْ في مقيلٍ نحسه متغيِّب (٢)

يتمتعون فيه بأكل الشواء المضهب (٣)

ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب غير ملمّن :

حبيب إلى الأصحاب غير ملمن يفدونه بالأمهات و بالأب

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب (٤)

وتنتهي هذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ، الكثيرة المعاني ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى لتبليغ أبياتها خمسة وستين بيتا

٣ — أما قصيدة علقمة فعدد أبياتها خمسة وأربعون بيتا بدأها بالغزل كما بدأ امرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يَكُ حقا كل هذا التجنب

---

(١) الخذروف : لعبة للأطفال .

(٢) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التي غاب عنها النحس

(٣) أي الذي لم ينضج تماما .

(٤) الهاديات : أوائل الوحش .

ليـــالى لا تبلى نصيحة بيننا ليالىَ حَلّوا بالسِّتار فغرب (١)
مبتلة كأنّ أنضاء حليها على شادن من صاحةٍ متربب (٢)

وبعد أن تحدث عن ماضى حبه لها ، ذكر الحاضر المؤلم الذى تقطعت فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :

إذا ألحم الواشون للشر بيننا تبلغ رَسُّ الحبِّ غير المكذب (٣)
أطعتُ الوشاةَ والمشاة بصَرْمها فقد أنهجت حبالها للتقضب (٤)

ويذكر وعدها له ، ودلالها الشديد ، ورجوع المودة والصلة من جديد ، ثم يقول :

فعشنا بها من الشباب ملاوةً فأنجح آيات الرسول المخبِّب (٥)

ثم يذكر تسليه بالأسفار على ظهر ناقته :

---

(١) الستار جبل بعالية الحجاز . غرب : موضع تلقاءه .

(٢) مبتلة : الحسنة الخلقة وتقسيم الأعضاء ، أو الضامرة الكشح . الأنضاء جمع نضو الهزيل : الحلى ، والحلى : ماتتزين به المرأة . الشادن : ولد الغزال . الصاحة : موضع . متربب : مربى فى البيوت . شبه جيدها وماعليه من الحلى بجيد هذا الشادن الذى تربيه الجوارى وتزينه بالحلى .

(٣) ألحم : أدخل . للشر اللام زائدة . الرس : الثبات الراسخ . المكذب : الزائل المتقطع .

(٤) الصرم : الهجر . أنهجت حبالها للتقضب : ضعفت العلاقة بينى وبينها وكادت أن تنقطع ، والتقضب : التقطع .

(٥) ملاوة : دهراطويلا . عشنا بها : أى نعمنا بوصلها . آيات : علامات ، مخبب معلم الخبب وهو الخداع ، أو من الخبب يريد المشى بين الهبيين ، والخبب نوع من السير ، يريد الرسول المفسد .

فانك لم تقطع لبانةَ عاشق بمثل بكورٍ أو رواح مُؤوَّب

ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، فيجيد وصفها فى خمسة أبيات جميلة قوية بليغة الأسلوب ، فيقول فيما يقول فى وصف عينها :

بعين كمرآة الصَّناع تديرها لِمُحْجَرِها من المُنصِيف المُثقَّب (١)

وفى وصف ذيلها :

تذبُّ به طوراً وطوراً تمرُّه كذَبِّ البشير بالرداء المهدَّب (٢)

ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية ، قال فيما قال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذْنب (٣)

بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادى كل شأو مغرَّب (٤)

ويصف أذنيه فيقول :

له حُرَّتان تعرفُ العتقَ فيهما كسامعتى مذعورة وسط ربرب (٥)

وهكذا يصفه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال فى أسلوب

---

(١) أى بعين صافية صفاء مرآة الصناع وهى المرأة الحاذقة العمل . المحجر : ماحول العين . المنصيف : المختار . المثقب : ذو الثقوب .

(٢) تذب : تدفع الذباب . المهدب : ذو الأهداب .

(٣) اغتدى : أخرج فى الغدو . وكناتها : أعشاشها . المذنب : مسيل الماء إلى الرياض .

(٤) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لاحه : أهزله . الطراد : المطاردة . الهوادى : أوائل الوحش . الشاو : الشوط . المغرب : البعيد .

(٥) الحرتان : الأذنان جعلهما حرتين للطافتهما وانتصابهما . السامعتان : الأذنان . المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش ذعرت فنصبت أذنيها وحددتهما . الربرب : جماعة بقر الوحش .

ممتع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياها يرتمين خميلة كمشى السّرارى فى الملاء المهدب (١)

فبينا تمارينا وعقدُ عذاره خرجن علينا كالجمان المثقب (٢)

فأدركهن ثانياً من عنانه بمر كمر الرائح المتحلب (٣)

وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية التى فضلت فيها علقمة على امرىء القيس ؛ إلى أن قال :

فعادى عداء بين ثور ونعجة وتيس شبوب كالهشيمة قرهب (٤)

ثم يذكر عودته إلى خبائه المطنب المضروب .

فقلنا : ألا قد كان صيدَ لقانص فجبوا علينا فضل برد مطنب (٥)

وتمتعهم بالأكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء .

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزْع الذى لم يثقب (٦)

---

(١) الشياه : النعاج الوحشية . الخميلة : الأرض الكثيرة النبات والشجر : المهدب ذو الهدب .

(٢) التمارى : التجادل والتشكك . عقد عذاره : أى إلجام الخيل . الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منتظمة كالجمان المنظوم .

(٣) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه . الرائح السحاب . المتحلب : المتساقط المتتابع

(٤) فعادى عداء : جرى أشواطا متتالية . التيس : الذكر من الظباء . الشبوب القوى . الهشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها فى حالة صيده وسقوطه صريعا على الأرض كالشجرة التى تقع وهى بالية .

(٥) فجبوا : أى فضربوا علينا خياما . البرد : كل ثوب موشى . المطنب : المشدود بالأطناب وهى حبال الخيمة .

(٦) الجزع : خرز فيه بياض وسواد .

ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذى سار فى نشاط وحدة يسابق الفوق وتسابقه ؛ ويشبهه بالحية المنسابة :

وَراحَ يُبارى فى الجَنابِ قلوصنا عزيزاً علينا كالحُباب المُسَيَّب (١)

وبذلك تنتهى هذه القصيدة

ثالثا :

ومن ذلك العرض السريع نرى أن القصيدتين :

ا — تتشابهان فى الوزن والقافية

ب — وفى الموضوع أيضا ، فكلتا القصيدتين مبدوءة بالغزل ، ووصف كل من الشاعرين فى كلتيهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله فى الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام وعودته من هذه الرحلة الجميلة الممتعة ، ويزيد امرؤ القيس بوصف المرقبة (٢) فى بيتين والدوية (٣) فى بيتين آخرين بعد الغزل مباشرة .

حـ — وتتشابه القصيدتين أيضا فى الخيال والروح ، وفى هذا الارتجال الفنى والبديهة الحاضرة الذين تفيض فى ذكرهما الروايات المختلفة .

ء — وتتشابهان فوق ذلك فى كثير من المعانى وأساليب الشعر.

١ — قال امرؤ القيس فى الفرس :

حبيبٌ إلى الأصحاب غير مُلَمَّن يفدونه بالأمهات و بالأب

---

(١) يبارى : يسابق . الجناب : مصدر جانبه مجانبة إذا صار إلى جنبه . القلوص . الناقة الشابة القوية . الحباب : الحية . المسيب : المنسابة .

(٢) هى المكان المرتفع الذى يقف عليه الصيادان ليرقب العدو .

(٣) الدوية : الفلاة الواسعة .

وقال علقمة :

أخا ثقة لا يلمن الحيَّ شخصه صبوراً على العلات غير مسبب

فذكر امرؤ القيس أنه غير ملمن ، وفصل علقمة فقال « الحي ، وشخصه » ثم عاد فأجمل فقال . « غير مسبب » أى غير ملمن ؛ وزاد امرؤ القيس بقوله : « يفدونه بالأمهات و بالأب » ؛ وزاد علقمة بقوله : « أخا ثقة » أى يوثق به و بمجابته وأصالته وقوته وسرعة عدوه عند المطالب ، و بقوله « صبورا على العلات » أى على مختلف الحالات أو على ما يلم به من تعب و إنضاء .

٢ — وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضا :

فكان تنادينا وعقدُ عذاره وقال صحابى :قد شأوناك فاطلب

وقال علقمة :

فبينا تمارينا وعقدُ عذاره خرجْنَ علينا كالجمان المثقب

يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنادى بعضنا بعضاً وألجمت الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابى : قد سبقك القطيع فاطلبه .

ويقول علقمة : أخذنا فى الجدال والكلام والشك وأنا ألجم فرسى وإذا نتاج الوحش تخرج علينا متتابعة منتظمة كالجمان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن الصيد قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع : « الجمان المثقب » زيادة رائعة .

٣ — وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدركَ لم يُجهد ولم يُثنَ شأوه يمُرُّ كخذروف الوليد المثقب

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنـــانه يمر كمر الرائح المتحلب

فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التى يلعب بها الأطفال مما يسمونه « المقلاع » فاذا ضربت لم تكد تراها العين ؛ وذكر علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو ثان من عنانه أى يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة بسرعة السحاب المتساقط المتتابع .. فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر شيئا من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب عنانه نحوه ليهدأ فى سيره ، ويأتى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيه امرىء القيس .

٤ — وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وَراحَ كتيسِ الرَّبْلِ ، يُنفضُ رأسه
أذاةَ به من صائكٍ متحلِّبِ (١)

وقال علقمة :

وراح كشاة الرَّبل ينفضُ رأسه أذاة به من صائك متحلبِ

---

(١) شاة الربل وتيس الربل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه وحدته . ينفض : يحرك . الصائك : العرق . المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول : إن هذا الفرس راح يحرك رأسه ليزيل العرق المتقاطر السائل .

فنجد إتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة مسبوقا ، والفضل لامرىء القيس .

٥ — ويقول علقمة :

ترى الفأرَ عن مُسْترغبِ القَدْرِ لاحِبًا
على جدد الصحراء من شدّ مُلهبِ (١)

خَفى الفأرَ من أنفاقه فكأنما
تجلله شؤبوبُ غيثٍ منقبِ (٢)

وظل لثيران الصَّريم غماغمٌ
يُطاعِسهنّ بالنضى المعلبِ (٣)

فهاو على حرّ الجبين ومنسقٍ
بمدْرانهِ كأنها ذَلَقُ مشعبِ (٤)

وقال امرؤ القيس من قصيدته فى المعنى نفسه :

ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبا (٥) على جَدَدِ الصحراء من شد ملهب

خفاهنّ من أنفاقهنّ كأنما
خفاهنّ ودْقٌ من عشى مجلب (٦)

---

(١) عن بمعنى من . مسترغب القدر : واسع الخطو . لاحبا : ظاهرا . الجدد الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى المثير للغبار .

(٢) خفى الفأر : أخرجه من أنفاقه ، وهى جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه وأحاط به . الغيث المطر . المنقب : الذى ينقب فى الأرض ويستخرج ما فيها لشدته . الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٣) ثيران الصريم : بقر الرمل . الغماغم : حوار الثيران عند الطعن . يطاعسهن : النضى : الرمح . المعلب . المشدود بالملباء وهى عصبة كانوا يشدون بها الرماح والسهام لئلا تنكسر .

(٤) هاو : ساقط . حر الجبين : ما أقبل عليك منه . المدراة : القرن . الذلق : الحد والطرف . المشعب : المخرز الذى تخرز به الجلود .

(٥) مستنقع القاع : الأرض المنخفضة الذى تنقع فيها المياه . لاحبا : ظاهرا .

(٦) الودق : المطر . مجلب : شديد الجلبة والصوت .

وظلّ لعسيران الصريم غماغم يداعسها بالسمهرى المعلب
فكاب على حر الجبين ومتق بمذرية كأنها ذلق مشعب

فنجد تشابه المعنى والأسلوب والألفاظ والخيال فى القطعتين .

٦ — وقال امرؤ القيس :

وقلنا لفتيان كرام : ألا انزلوا فمالوا علينا فضل ثوب معطب

وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص فخبوا علينا فضل برد معطب

فيزيد علقمة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ، ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ — ويقول امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل الشروع بسابح أقب كيعفور الفلاة مجنب (١)

ويقول علقمة :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب (٢)
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادى كل شأو مغرّب (٣)

فنجد علقمة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حقا : « وماء الندى يجرى على كل مذنب » ، و « منجرد قيد الأوابد — البيت كله » ،

---

(١) السابح : الفرس السريع الجرى . الأقب : الضامر البطن . اليعفور : حمار الوحش . الفلاة : الصحراء .

(٢) المذنب : مسيل الماء إلى الرياض .

(٣) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لاحه : أهزله . الطراد : المطاردة . الهوادى : أوائل الوحش . الشأو : الشوط . المغرب : البعيد .

ويزيد امرؤ القيس فى وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « منجرد ، وقيد الأوابد » مما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقمة هنا أرفع بلاغة من غير شك .

٨ — ويقول امرؤ القيس فى الناقة :

بمجفرة حرف كأن قتودها ... على أبلق الكشحين ليس بمغرب (١)

ويقول علقمة :

بمجفوة الجنبين حرف شمولة ... كهملك مرقال على الأين ذعلب (٢)

٩ — ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وبهو هواء تحت صلب كأنه ... من الفضة الخلقاء زحلوق ملعب (٣)

ويقول علقمة فى المعنى نفسه :

وجوف هواء تحت متن كأنه ... من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب

١٠ — ويقول امرؤ القيس فى ذنب الفرس :

وأسحم ريان العسيب كأنه ... عثاكيل قنو من سميحة مرطب (٤)

---

(١) المجفرة : الناقة العظيمة البطن . الحرف التى تماثل حرف الجبل فى صلابتها . القتود : أداة الرحل . أبلق الكشحين يريد حمارا وحشيا أبيض الخاصرة . الغرب : الذى ابيضت أشفاره وحاليقه .

(٢) الحرف : الضامرة أيضا . الشملة : السريعة . كهملك أى كما تشتهى وتريد . المرقال : الكثيرة الرقلان وهو المشى السريع . الأين : التعب . ذعلب : خفيفة فى سيرها .

(٣) البهو : جوف الصدر . هواء : واسع . الصلب : الظهر . الخلقاء : الملساء الزحلوق : ما يتزحلق عليه الأطفال أثناء لعبهم .

(٤) الأسحم : الأسود ، والمراد به الذنب . ريان : ممتلئ . العسيب : أصل الذنب العثاكيل : الأغصان الرقيقة وهى الشماريخ . القنو : العذق وهو العنقود . سميحة : بئر على حافته نخل مثمر .

ويقول علقمة فى ذنب الناقة :

كأن بحاذيها إذا ما تشذرت[1] عثاكيل قنو من سميحة مرطب

فيزيد علقمة بالشطر الأول أو أغلبه على امرىء القيس .

١١ — ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وعينان كالماويتين[2] ومحجر إلى سند مثل الصفيح المنصب

ويقول علقمة فى الناقة :

بعين كمرآة الصناع تديرها لحيزيها من النصيف المثقب

يشبه امرؤ القيس عينى الفرس بمرآتين صافيتين ويقول إن عينه يسندها عظم الرجه القوى الصلب المنصب . ويقول علقمة : إن عين الناقة شبيهة بعين المرأة الصناع التى تديرها وتنظر بها من خلال ثقوب الخمار ؛ فنجد إحكاما فى التشبيه عندهما واختلافا فى تفاصيل المعنى ، واتفاقا فى عمومه .

وهذا الاتفاق كله يبين لنا مدى هذا التشابه الفنى الواسع بين تينك القصيدتين الكبيرتين .

رابعاً :

وهناك خلاف كبير أيضا بين القصيدتين يتجلى لك فى ما يأتى :

---

(١) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من الفخذين . تشذرت الناقة : ضربت بذنبها

(٢) تثنية ماوية وهى المرآة الصافية . المحجر : نقرة العين . الصفيح المنصب : ألواح الحجارة الثابتة .

١ — قصيدة امرىء القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتا فالأولى خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ — وشتان بين غزل القصيدتين ، فغزل امرىء القيس ممتع مخصب بعكس غزل علقمة ، وعلقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ، فنجده يقول :

فإنك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب

فيرى أن يقطع آماله في حب محبوبه ويقطع صلته بها بالسفر مبكراً أو رائحاً ؛ ويقول أيضاً :

فقلت لها : فيئي فما يستفزني ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء فمن الذي يستفزه يا ترى ؟

ولكن امرىء القيس لا يدور بخلده شيء من ذلك ولا ينطق به لسانه ، إنما تراه يقول :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فنجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسحرها مع ذلك وامتلاكها بهذا الضعف القلوب والأرواح .

وقد ذكر علقمة في غزله الوصل ومظاهر الجمال في خلق حبيبته وفي زينتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة الصلات ثم قطعه لها بالأسفار . أما امرؤ القيس فيذكر لبانات الفؤاد المعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن ، ورائحتها الذكية حتى في غير وقت الزينة والطيب ، وإقامتها على المودة وثقته بها ، ويتذكر ساعات رحيل أحبابه

وهو ينظر إليهن نظرة اليائس الحزين ، تتهمر دموعه حزنا لفراق أحبابه .

وعلقمة فى غزله الذى يبلغ الأربعة عشر بيتاً لا يصل على أى حال إلى منزلة امرىء القيس شاعر الغزل والجمال الذى رسم فى مطلع قصيدته صوراً حية رائعة لأحبابه وذكراهن فى إيجاز وفى ثلاثة عشر بيتا .

٣ — أما الناقة فقد وصفها علقمة فى خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس فى بيت بل فى شطره فقط ، ويزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذى شبه ناقته به وصفا جميلا ، فعلقمة إذاً يتفوق على امرىء القيس فى وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحشى فى ثلاثة أبيات :

٤ — ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علقمة فى ثلاثة عشر بيتاً ثم ذكره فى بيتين فى آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس فى سبعة عشر بيتاً ثم عاد إليه فى ذكره لرحلة الصيد ، وفى نهاية القصيدة عاد لذكره فى سبعة أبيات أخرى . ووصف امرىء القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئاً منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرىء القيس بذلك وهو الذى قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ؛ ولكن امرأ القيس مع ذلك يخطىء فى بعض معانيه ، أما علقمة فلا يخطىء فى شىء وذلك ما لاحظته أم جندب ونقدت امرأ القيس من أجله وفضلا علقمة عليه .

٥ — ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل ممتع .. وصفه علقمة فى ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس فى اثنى عشر بيتاً ، مع اتحاد فى بعض الأساليب والمعانى ، ولكن امرأ القيس يزيد فى وصف الصيد على علقمة

من غير شك ، وزاد عليه أيضاً بوصف الخباء الذى نزل هو ورفاقه فيه لتناول الغذاء وأكل لحم الشواء المضهب كما يقول :

و بذلك نجد تفوق امرىء القيس فى الغزل ووصف الصيد وتفوق علقمة فى وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن فى قصيدة علقمة صورا شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها من قصائد امرىء القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والطير فى وكناتها » ، وقوله « بمنجرد قيد الأوابد » ، وقوله : « فعادى عداء بين ثور ونعجة » ، وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

خامسا :

وامرؤ القيس له السبق فى إنشاء قصيدته و إبتكار معانيها ، فعلقمة تابع له فى المعانى التى شارك امرأ القيس فيها من غير شك .

ولكن بماذا نسمى عمل علقمة ، أنسميه معارضة أم تقليداً فنيا ، أم أنه عمل جديد بكر كعمل امرىء القيس الشاعر الأول .

إن عمل علقمة الفنى ليس جديدا بكرا ، ولكنه جديد فى بعض نواحيه ، وهو تقليد فى بعض النواحى ، ومعارضة أدبية فى باقيها ؛ ولسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشاعرين على الاطلاق ، كما فعل القدماء ، ففضلوا علقمة على امرىء القيس ، فقالت أم جندب ما قالت ، وقال ابن رشيق : « ونازع — امرؤ القيس — علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة

علقمة عليه ما كان[1] » ؛ وكما فعل بعض المحدثين ففضلوا امرأ القيس على أى حال ، ولكن نهجنا فى الموازنة نهج يسير على العدل والحق والانصاف فى الحكومة الأدبية دون نظر إلى ما عدا ذلك .

إن عمل علقمة الفنى فى قصيدته جديد فى الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو تقليد فيما أسلفناه لذلك من معان احتذى فيها علقمة امرأ القيس الذى سبقه بارتجال قصيدته ، ولكن العمل الفنى الذى عمله علقمة كله وعلى وجه الاجمال أسميه معارضة ، والمعارضة فى الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ، فيتبعه شاعر آخر بقصيدة فى خيالها ووزنها وموضوعها مع الاتفاق فى الوزن والقافية فى أبيات كثيرة ، وقصد الشاعر الثانى أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا ، أو أن ينقض فكرة الأول فى قصيدته .

والمعارضات فى الشعر العربى القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة فى قصيدتينا — موضوع هذا البحث — أظهر وأبين وأوضح .

سادسا :

وبعد فقد حاول علقمة بقصيدته أن يتفوق على امرىء القيس فى حكم النقد الأدبى .

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرمه منه بعض الباحثين من المحدثين ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفنى مما :

١ — فللامرىء القيس ميزة البدء وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق فى الغزل والصيد .

---

(١) ١/١٣٥ العمدة ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر .

٢ — ولعلقمة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر فى قصيدته أحيانا حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرىء القيس زعيم الشعر الجاهلى فى وصف الناقة وفى وصف الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس .

إن الصور الفنية المبتعة فى القصيدتين كثيرة جدا ، وخيالها قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تنتهى .

وروحية الموضوع والروح والوزن والقافية فى القصيدتين تكاد تمازج بينهما إلى حد بعيد .

وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة التى فصلنا القول فيها ؛ لنتخذ منها منهجا أدبيا واضحا فى النقد والموازنة

خاتمة هذا البحث

١ — لا تزال دراسة الشعر الجاهلى قديمة تقليدية لا أثر للبحث والتجديد فيها ؛ ولا يزال فهمنا للشعر الجاهلى فهما سطحيا عتيقا ، ومناهج البحث الأدبى عندنا مناهج بدائية بالية .

وكانت أول ثورة فى تاريخ البحث الأدبى فى الشعر الجاهلى ظهور كتاب « الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين بك الذى جعله وقفا على دراسة نظرية انتحال الشعر الجاهلى وبواعثها ومظاهرها عند الشعراء الجاهليين .

وقد ألفت كتب كثيرة فى الدفاع عن الشعر الجاهلى ؛ من أهمها : الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى وقد طبعه عام ١٩٢٦ م ، وكتاب « النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى » تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، ونقض كتاب الأدب الجاهلى للأستاذ الكبير الشيخ الخضر حسين ، ونقض مطاعن فى القرآن الكريم للأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ، ونقد الأدب الجاهلى للخضرى بك ... وبحث نظرية الدكتور طه بك ودراستها ومناقشتها ، تجد كل ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » ، فلا داعى لذكرها والافاضة فى شرحها فى هذا الكتاب .

٢ — وهذه البحوث التى تضمنها كتابى هذا : « موقف النقاد من الشعر الجاهلى » خطوة ثانية فى البحث الأدبى عن هذا العصر البعيد ،

وضوء ينير السبيل فى دراسة الشعر الجاهلى والكشف عما أحاط به من عوامل ومؤثرات وتلك الموازنات الأدبية التى سبق عرضها هى الأولى من نوعها فى دراسة كبريات القصائد الجاهلية ومدى ما فيها من تجديد أو تقليد .

وإنى لأرجو أن تساعدنى الظروف على إخراج كتاب جديد فى دراسة الشعر الجاهلى والشعراء الجاهليين وفق هذا المنهج المختار الذى شرحته وفصلت الكلام فيه .

ومن الله أستمد العون والتوفيق والسداد ؛ هو ولى نعم المولى ونعم النصير ؟

القاهرة فى :
٢٠ ربيع الأول ١٣٧٠ هـ
٣٠ / ١٢ / ١٩٥٠ م

محمد عبد المنعم خفاجى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

فهرست الكتاب

الكلمة الأولى ٣
آراء علماء الأدب فى الشعر الجاهلى ٤
الشعر الجاهلى بين التجديد والتقليد ٢١
الطبع والصنعة فى الشعر الجاهلى ٢٧
دفاع عن الشعر الجاهلى ٣٣
موازنة بين قصيدتين من عيون الشعر الجاهلى . . . ٤٢
المحكومة الأدبية بين قصيدتى علقمة وامرىء القيس . ٥١
خاتمة هذا البحث ٧٦
استدراك ٧٨
فهرست الكتاب ٧٩

obeikandl.com